بدر شاكر السيّاب

مِن ليالي السّهاد

١ . ليلة في لندن

كما ينسلّ نور خائف من فرجة الباب ِ
الى الظلماء في غرفة ،
سمعتُ هتافه المجروح يعبر نحوي الشُرفة
ليرفع عن سماوة لندنَ الليلَ المطلّ ، بلونه الكابي ،
على الطرقات ترقد في دثار الثلج ملتفّة .
وامس سمعتُ في ايرانَ صوتَ الديك في الفجرِ ،
ومن أُفُق المنائر في الكويت وزرقةِ البحرِ ،
أهابَ — فرشّ جفني بالنعاس : (رنينُ اكوابِ
بماء البصرة الرقراق تُملأ ثم تسقيني) —
نداءٌ راح ينشره المؤذّنُ ... أطفىءَ الفانوسُ ، رفّ ضياؤه رفّة
وبعثره الظلام .

وليلي الأوّاهُ في بيروتَ يُحييني
لأبصرَ فيه وجهَ الموت ، راح يذيبه ذبع من اللهفة
تدفّق من فؤاد البلبل المسكوب بين غصون لبلابِ .
ليالٍ من عذابٍ ، من سقامٍ ، لستُ انساها :
غريباً كنتُ حتى حين احلمُ ، لستُ في جيكورْ
ولا بغدادَ ، امشي في صحارى قلبي المسعور
يُريد الماءَ فيها : « ماءُ ... اين الماء ؟ » وهي تُريه افواها
على آفاقها الربداء ظمأى تشرب الديجور
فلا تروى . أأقضي العمرَ في صحراءَ في ليلٍ من العطَشِ ؟
افتّش عن عيون الماء ، عن اشراقة الغبَشِ ؟
كأعمى نال منه السكرُ صاح ، ورفرفتْ كفّاه بين مساند الماخور
ليبحثَ عن رفيقٍ : « اين جاري ؟ اي داري ؟ اين ــ اوّاها ــ
اميرتي التي كانت تناولني كؤوس النور
فيُبصر قلبي الدنيا ويلقاها ؟ »

كأنّ الصبح اشرق في العراق ...
وتعبر الرؤيا
بحاراً بي وتطوي الف درب في الدجى تاها :
تراجعَ عالمٌ وأطلّ ثانٍ : عالمٌ يحيا
على الاقمار تولد ثم تكمل ثم تندثرُ ،
وما لبس الجديدَ بغير يوم العيد ، يدّخرُ
ويجمع ثم يُنفق ثم يضحك وهو يفتخرُ
بان الله يرزق حين يرزق ... هكذا الدنيا :
شتاءٌ ثم صيفٌ . ليس في جيكورَ محتكرُ
ولا فيها مصارفُ او جرائدُ : « ليل كورّيا

ُيرى شفقاً من النيران » .
فالنيران فيها حين تستعرُ
تضيء لحى الشيوخ يحدّثون ، وأعينَ النسوة
تحدّق في الطعام وترقب الاطفالَ في نشوة .
اعدْني يا اله الشرق والصحراء والنخلِ
الى ايامي َ الحلوة ،
الى داري ، الى غيلان الثمهُ ، الى اهلي !

٢ . ليلة في باريس

وذهبتِ فانسحب الضياءْ ،
احسستُ بالليل الشتائيّ الحزين ، وبالبكاءْ
ينثال كالشلال من أُفقٍ تحطّمه الغيومْ .
احسستُ وخز الليل في باريسَ ، واختنق الهواءْ
بالقهقهات من البغايا ... آهِ ! ترتعش النجوم
منها كبلّور الثريات الملطّخ بالدماء
في حانة لمُدى السكارى في جوانبها انتضاء .
لم يبقَ منكِ سوى عبيرْ
يبكي وغير صدى الوداع : « الى اللقاء » .
وتركتِ لي شفَقاً من الزهَرات جمّعها اناء
كالانجم الزرقاء والحمراء في أُفُقٍ به حلم الصغير ،
ارجعن لي عمرَ الطفولة : يا محاراً في غدير
تتقارع الاقداحُ فيه ، ترنّ اجراسٌ كثارْ :
خوخٌ واعنابٌ ورمّانٌ ... وتمتلىء الجرارْ

عند الغروب، هو الخريفُ ونحن نَسْمرحول نارْ.
وكمستفيقٍ في العراءْ
من حُلمه : هو شهر يار ، وتلمس الكفُّ الخواءْ
ذهبَ التراب ... ورنّ في الليل النباحُ او العواءْ،
عانقتُ كفَّكِ باليدين : « الى اللقاءْ »
— « الى اللقاءْ »
وذهبتِ فانسحبَ الضياءْ .

لو صحّ وعدُكِ يا صديقة ،
لو صحّ وعدُكِ .. آه ، لانبعثتْ وفيقة
من قبرها ، ولعادَ عمريَ في السنين الى الوراء .
تأتين انت الى العراقِ ؟
أمَدٌّ من قلبي طريقه
فامشي عليه . كأنما هبطت عليه من السماء
عشتارُ فانفجر الربيعُ لها وبرعمت الغصون :
توتٌ ودفلى والنخيلُ بطلعهِ عبقَ الهواء ،
وهو الاصيل وتلك دجلةُ
والنواتيُّ الخفافُ يردّدون :
« يا ليتني نجمُ الصباحْ
آه لاسقطَ يا حبيبيَ ، اذ تنام ، على الغطاء ،
اعتلٌّ بالبرْد : ارتجفتُ فلُفّني ، بردَ الهواء ! »
وهو الاصيلُ وانتِ في جيكورَ تجتذب الرياحْ
منكِ العباءةَ فاخلعيها ...
ليس يدّثر الضياء !
يتماوج البَلَمُ النحيلُ بنا ، فتنتثرُ النجومْ

من رقّة المجداف كالاسماك تغطس او تعومْ ،
ويحار بين الضفّتين بنا كأنّا منه في ابدِ الزمانْ :
زمنٌ ولا ماضٍ يعود له ، ولا غدَ كي يسيرَ
اليه . تنطفىءُ النجوم ونحن نحن العاشقان .

وذهبتِ فانسحبَ الضياءْ
لم يبقَ منكِ سوى عبير
يبكي ، وغير صدى الوداع : « الى اللقاء ! »
وتركتِ لي شفقاً من الزهرات جمّعها اناء .

٣ . ليلة في العراق

وألهبَ كلَّ الواح الزجاج الزُرق في الظلماءْ
فنوّر غرفتي ،ايماضُ برقٍ ثم رشَّ مدارجَ الأُفُقِ
نُثارٌ من حطامِ الرعدِ فارتعشتْ له الاصداءْ .
وحفَّ ، على الدجى ، غابٌ من الامطار والازهار والورقِ ،
وكنتُ اصيح من أرَقي
ومن مرضي : « اريد الماء ! » ،
وتخنقُ صوتي الظمآنَ وهوَهةُ الدجى والماء .
ويُعولُ من بعيدٍ بوق سيّارة
يجيء اليَّ عبرَ الماءِ في الحارة ،
يجيء اليَّ من اعماق بحرٍ شمسُه الخضراء
تنثُّ على شراع السندباد ازاهرَ الشفقِ .
وكنتُ اصيح من أرَقي

ومن مرضي : « اريد الماء ! » .
كأنّي وسط هذا الكون حيث يسوطني العطَشُ
نواةٌ حولها ارتجف العصيرُ الحلوُ في ثمَرَة
ويُحرقها صداها .
وانتظرتُ : سيغسل الغبَشُ
صداي َ ، يُحيلني شجَرَة
تمصُّ الماء ، يقرع في مداها النُسْغُ آلاف َ الدرابك حين يرتعشُ

وألقى البرقُ ، أرقَصَ ، ظلَّ نافذتي على الغرفة
فذكّرني بماضٍ من حياتي كلُّه المُ :
طفولتي الشقيّة ، والصبى وشبابي َ المفجوع تضطرِمُ
مشاعري البريئةُ فيه : كيف يجوع آلاف من الاطفال ملتفّة
بآلاف الخروق تعربدُ الريحُ الشتائيّة
بها ، وأظلُّ احلم بالهوى ، والشطّ ، والقمَر ؟
وتزحمُ كلَّ درب من دروبي هذه الجُوَذُ الحديديّة
وتتبعني عيونُ الموت من زُمَرِ البنادق نزَّ بالشرَرِ
كُواها ... في دروب الجوع ألهثُ زائغَ النظَرِ .
واذ يتمرّدُ الانسان فيّ على العبوديّة
اثورُ على الشعوبيّة .
ولكنّ البنادقَ ما تزال عيونُها الغضبى
تُطاردني لاني، غيرَ ربّي وحدَهُ ، لم أتّخذْ ربّا .

وحين تنفّستْ ، عند انحسار الليل ، عشتارُ
تُنفّض جرحَ تمّوز المدمّى ، تغسل التُرْبا
عن الجنبات منه ، وحين هدَّ البغْيَ ثوّارُ

أرحتُ جبينيَ المحمومْ
على شبّاكِ داري أرقبُ الدَرْبا
تدفّقَ بالعصيّ وبالحبال يشدُّها العارُ
لتسحبَ او تمزّقَ جسمَ طفلٍ ثغرُه المحرومْ
من القبلات والغُنْوات والزادِ
ينادي دون صوت :
« آه يا امّي ! عرفتُ الجوعَ والآلامَ والرُعْبا
ولم اعرفْ من الدنيا سوى ايام اعياد
فتحتُ العينَ فيها من رقادي لم اجدْ ثَوْبا
جديداً او نقوداً لامعات تملأ الجَيْبا
لانّ ابي فقيراً كانَ » .
يالك ثورةً تتأكّلُ القَلْبا
فأصرخُ : « ايّها الجبناءُ كُفّوا ! »
ثم تزحم دربيَ الخُوَذُ الحديديّة .
وتخنقُ من فم التنّور في داري
فالهثُ في دروب الجوع اطحنُ من حصاها ثم اعجنُه واقذفُه الى النارِ
لأُطعمَ منه زُغْباً يطلبون الزادَ في قَرِ العشيّاتِ الشتائيّة .

ويمضي بالاسى عامان ، ثم يهدُّني الداءُ ...
تلاقفُني الأسرّةُ بين مستشفى ومستشفى
ويعلكني الحديد . ومن دمي ملأ الاطبّاءُ
قنانيَ ؛ وزّعوني في القناني : تصبغُ الصَيْفا
دمائيَ والشتاءَ .
وذات صبحٍ قيل انّ الشرّ قد دُحِرا
ودكّ معاقلَ الطاغوتِ في بغدادَ ابطالُ ،

فقلتُ : سأوقدُ القمَرا
سراجاً عند بابي . انّه ظفَري ! أما قالوا
بأنّ الشرّ قد دُحِرا ؟

وعدتُ الى بلادي . يا لنقّالات اسعاف
حملْنَ جنازتي ! متمدّداً فيها ائنٌّ رأيتُ غَيْلانا
يحدّقُ ، بانتظاري ، في السماء وغيمِها السافي .
وما هو غير اسبوعينِ ممتلئَيْنِ أحزانا
ويفجأني النذيرُ بأنّ اعواماً من الحرمان والفاقة
ترصّد بي هنا ، في غابة الخُوَذِ الحديديّة .

غريقٌ في عُباب الموج تنحبُ عنده الغاقة ،
تئنُّ الريحُ في سَعَفِ النخيل ، عليه ... ترثيهِ .
قصائدُه الحزينة بين اوراق من الدفلى او الصفصاف تبكيهِ !